... والبادية ؟

استفهام سمعته كثيراً اثناء جولاتي في انحاء الايالة وسؤال وجهه الي عدد عديد من رؤساء القبائل لان رؤساء القبائل - الا ما شذ - يحبون البادية ويعطفون على اهاليها.

ولقد تعجبني البادية بل اراني مولعاً بها الى حد الحنين اليها والعشق فيها...

يعجبني من البادية اني اجد فيها متعة لا أجدها في الحاضرة حتى ليخيل الي ان الذي يسكن البادية هو الذي يعمر الارض ويحيي الحياة الحقة اذ يجاور الطبيعة ويساكن التكوين جنباً لجنب فيصبح مع الصبح ويمسي مع المساء ويساير الفصول ويضاحك الاشعة ويغازل الانواء ويداعب قطرات الماء

ويعجبني منها فضاءها الواسع الرجا الساكن الصفحه الهادئ النأمه ذلك الذي لاأحسب ان دونه في المدن يسع بعض ما يسعه من جوانب تفكيري وآلامي وآمالي في الحياة. فضاء ارسل فيه البصر على انفساحه فلا يرتد علي حاسراً ببناية أو جدار ولاكنه يظل في تيه مغمور بآثار قدرة الخالق المبدع من المهامه الفيح والصحاري القفراء الى ان يصل المرمى وابعد منه حيث تلتقي اسراب الافكار مني بقطعان الظباء في مسارحها من ارض الله

ويعجبني منها جمال ارضها الفتان جمال طبيعي ساذج انزه نفسي في محاسنه كلما استيقظت باكراً اتسمع بكاء الندى وحفيف الشجر ورفرفة الطير وخرير الامواه وتوقيع الاوتار على حواف الانهار واتنسم فيح العبهر وريح الخزامى وتفتح الاكمام بين احمرار الشقيق وتناسق العقيق.

ويعجبني من البادية منظر لياليها تحت ضوء القمر الوضاح اذ اتصور بين طيات امواجه الفضية مخاطرة الاسد ومراوغة الثعلب وتلاوذ القنفود وتسلل الذيب .

ويعجبني منها اكواخها البسيطة التي الجها فأجد فيها العروب الطروب والهيفاء المخصرة اسرة كريمة عفيفة تمثل الوجوه بيضاء محمرة والعيون حوراء دعجاء يفتحها الغزل ويغضيها الخجل وقد قال المتنبي من قديم :

حسن الحضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب

يعجبني من البادية كل ذلك الا انه خيال رباه الشعراء في النفوس وبذروه في الاذهان وابعد الناس عن الحقيقة الشعراء.

ان البادية في الحقيقة مأوى القبح والبشاعة ومحط الالم والشقاوة.

أنظر اليها فيلوح لي على صعود نجد او في انحدار غور او في منعطف سبيل شخص المرأة البدوية شعثاء وعثاء ترزح تحت قرب الماء وحصص الوقود وجزاف الكلأ وتقطع السهل والوعر ركضاً على الاقدام وحبواً على الاكف.

وأنظر اليها فأرى كيخاناً من العشب اليابس ومن رجيع البقر او خياماً شعرية فاحمة بالية طالما أكل عليها العفاء وشرب مساكن لاتقي من قر ولا حر وحولها الازبال متراكمة والسكان رائحين غادين كالضباع حيارى والشاربين سكارى والانعام سائمين منتفشي العمائم مبعثري الاكمام ذوي قمصان فدمه واردية ترابية وسخه وبرانيس كالأحلاس ونعال مخصوفة هي الحفاء نفسه.

وأنظر اليها فأبصر العورات عرايا والعاهات مفضوحة والوجوه ملتفعة بالركب والناس جياعاً والامراض تفتك فيهم فتكا والاطفال هاملين.

مباءة الجهل وبؤرة الضعف ومستنقع الهمجية هذه حالة البادية، حالة تدعو الى الشفقة والرحمة.

اجل اعترف بان البادية احسن أمراً مما كانت عليه وأعترف بان أولي الامر قاموا فيها باصلاحات كثيرة ومجهودات عظيمة عليها يشكرون ولاكن استنكر الفرق القائم الآن بين البادية والحاضرة والبون الشاسع الذي يفصلهما مع ان البادية يجب ان تناصي الحاضرة في الحياة وتسايرها جنباً لجنب وقدماً لقدم.

ان البادية خدر الجنس الخالص من شائبة الدخيل وهي منبع ثروة الحاضرة ومصدر نعمها ومستودع ازوادها واقواتها بكل مافيها من جلبة وضوضاء وعقول ومجهودات وانفاس وهي الكادة التاعبة والحاضرة مستريحة راتعة في بحبوحة الدعة والوداعة والترف. فضل البادية عليها كفضل الغنى على الفقروالقدرة على العجز وحسن الحيلة على سوء الحيرة.

اليس من الجائز اذن ان تستفهم البادية في اوقات فراغها وسوائع راحتها، وهي قليلات، في شأنها وأن ارفع على هذه الصحيفة استفهامها هذا؟

هي محتاجة الى ترميم مادي وتلقيح ادبي، محتاجة الى رفق بها في الضرائب، محتاجة الى اصلاح في طرق اجراء الاحكام، محتاجة الى اعانة الحكومة في هاته الازمة التي وان كانت عامة فهي في البادية اشد وانكى لانها اول وآخر من يحس بالألم من اعضاء الامة بصفتها الحاسة الاولى بها واليد الفاعلة فيها الخير والنماء والقوة، محتاجة الى زيادة في الملاطفة من قبل الرؤساء.

فالى الحكومة التي تعهدت بعنايتها ودرايتها الحواضر حتى اشرق فيها فجر الاصلاح واخذت على عاتقها انتشال المغرب كله من وهدة سقوطه ارفع رجاءي في هذا الجزء العظيم من كلية المغرب والذي هو الاقدر على حفظ كيانه واستبقاء الرمق فيه وما ذلك على همم الرجال بعزيز.

م.